الفصل الثامن

مطاردة السحرة ونهاية السحر والمعجزات
(1450 – 1750م)

لم يحول الإصلاح الكنسي الشعب في أوربا إلى المسيحية الأرثوذكسية من خلال الوعظ والتعليم الشفهي فقط، بل إن الذي حوله حقبة ثلاثمائة عام أمضيت في مطاردة السحر، من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، وهو ما دعاه ر. هـ. روبنز R.H.Robbins: «الكابوس المرعب، والجريمة الأقذر، والعار الأعمق في الحضارة الغربية»[1]، فذلك هو ما ضمن تخلي الأوربيين عن الإيمان بالسحر، فقد أوجدت عقيدة محكمة حول عبادة الشيطان، ثم استخدمت التنكيل لإزالة الانشقاق إزالة كلية، وأخضعت الفرد لرقابة سلطوية، وبشكل معلن شوهت سمعة النساء.

وكانت أعمال مطاردة السحرة هي هيجان مسيحي أرثوذكسي لتجريم النساء والحط من شأنهن، ذلك أنهن «الوعاء الأضعف» حسب تعبير القديس بطرس[2]، وقد كتب القديس كليمنت Clement الإسكندريّ في القرن الثاني م: «ينبغي على كل امرأة أن تشعر بالعار، من خلال التفكير أنها امرأة»[3]، وأوضح الأب الكنسي تيرتوليان Tertillian وشرح لماذا تستحق النساء وضعهن كمرذولات، وعدهن مخلوقات بشرية أدنى بقوله:

«أو لا تعرفين بأنك حواء، وقضاء الرب على جنسك هذا الذي يعيش في هذا الجيل: الجريمة لا بد بالضرورة من عيشها أيضاً، أنت باب الشيطان، وأنت لست سوى البائعة لتلك الشجرة، وأنت أول من تخلى عن الشريعة اللاهوتية، وأنت التي أقنعته، وهو الذي لم يكن الشيطان شجاعاً بما فيه الكفاية حتى يهاجمه، وأنت التي

دمرت بصورة فائقة السهولة صورة الرب، وبسبب ذلك إنك تستحقين الموت، حتى لقد توجب على ابن الرب أن يموت»[4].

وعبر آخرون عن هذا الرأي بفظاظة أكبر، فقد كتب الفيلسوف المسيحي من القرن السادس بوثيوس Boethius في كتابه مواساة الفلسفة: «المرأة هيكل بني على بالوعة قاذورات»[5]، وفي القرن السادس صوت الأساقفة في مجمع ماكون Macon الكنسي حول فيما إذا كان للنساء أرواح[6]، وفي القرن العاشر أعلن أودو Odo، من ديركلوني «أن تعانق امرأة هو أنك تعانق جوالق من السماد»[7]، واقترح في القرن الثالث عشر القديس توماس الأكويني Thomas Aquinas بأن الرب اقترف خطأ في خلق المرأة بقوله: «ما كان ينبغي خلق أي شيء في بداية التأسيس فيه عيب أو غش، لذلك توجب عدم خلق المرأة وقتها»[8]، وناقش اللوثري ويتنبيرغ Winttenberg وتساءل «عما إذا كانت النساء مخلوقات بشرية حقاً»[9]، وعدّ المسيحيون الأرثوذكس النساء مسؤولات عن جميع الآثام والذنوب، كما جاء في التوراة الأبوغرافية: «من المرأة جاء الذنب في البداية، وشكراً لها، نحن جميعاً لابد أن نموت»[10].

وفي الغالب جرى فهم النساء على أنهن معيقات للروحانيات في محيط يحكم الرب فيه بدقة من السماء، ويطلب التخلي عن المتعة البدنية، كما جاء في رسالة بولص الأولى إلى أهل كورنثوس حين أعلن 1/ 7: «من الأفضل للرجل أن لا يكون له علاقة بامرأة»، وأوضح قاضي محكمة التفتيش الذي كتب «مطرقة السحرة Malleus Maleficarum بأن النساء أكثر قابلية بأن يكن ساحرات أكثر من الرجال:

«بسبب أن عنصر الإناث يكنّ مشغولات بالأشياء المتعلقة بالجسد أكثر من الرجال، بسبب أنهن خلقن من ضلع الرجل، وهن فقط حيوانات غير كاملات وملتويات الأعناق، في حين يعود الرجال إلى الجنس صاحب الامتيازات، الذي وسطه ظهر المسيح»[11].

وقدر الملك جيمس الأول أن نسبه النساء إلى الرجال الذين تورطوا في أعمال السحر هو عشرون امرأة إلى ذكر واحد[12]، ومن الذين نكل بهم رسمياً من أجل السحر كان ثمانين إلى تسعين بالمائة من النساء[13]، ووجد المسيحيون في النساء جميع

الأخطاء من جميع الأنواع التي يمكن عدّها، وأورد مؤرخ أن واعظاً من القرن الثالث عشر قال:

«اشجب النساء من الجهة الأولى من أجل... إثارة الفسق والشهوانية بملابسهن، ومن الجهة الثانية لأنهن متصنعات إلى أقصى الحدود، ومشغولات كثيراً بالأولاد وبخدمة البيت، فهن مرتبطات بالأرض لا يمكنهم منح ما ينبغي من تفكير، للأشياء اللاهوتية»[14].

ووفقاً لما جاء عن واحد من الرهبان الدومينيكان من الحقبة التاريخية نفسها: «إن المرأة هي سبب اضطراب الرجل، وجعله حيواناً غير مستقر، ويعيش في قلق دائم، وفي حروب لا تعرف التوقف، مع دمار يومي، وعواصف بيتيه.. وإعاقة عن الإنصراف إلى العبادة والتقوى»[15].

ومع انتشار حمى الإصلاح الكنسي، أصبح الجانب الأنثوي للمسيحية، في عبادة مريم موضع شك، ففي خلال العصور الوسطى كان من المعتقد أن قدرات مريم وقواها مؤثرة بفعالية في كبح قوى الشيطان وقدراته[16]، لكن البروتستانت تخلو نهائياً عن تبجيل مريم، في حين قام الإصلاحيون الكنسيون الكاثوليك بإنقاص أهميتها، وأصبحت عبادة مريم في الغالب مؤشراً على عبادة الشيطان، وفي جزر الكناري كانت ألدونكا دي فارغاس Aldonca de Vargas قد شكيت إلى محكمة التفتيش بعدما ابتسمت لدى سماعها ذكر العذراء مريم[17]، وشوه قضاة محكمة للتفتيش تمثال للعذراء مريم تشويهاً متعمداً ومصمماً، فقد غطوا الجانب الأمامي من تمثال لمريم بسكاكين حادة ومسامير وتوّلت عتلات فصْل ذراعيْ التمثال ثم جرى قلب التِّمثال وتحطيمه فوق السكاكين والمسامير[18].

وأظهرت أعمال مطاردة السحرة خوفاً كبيراً من الجنس عند الإناث، وأوضح الكتاب الذي كان يعد بمثابة دليل لقمع أعمال السحر، أي كتاب «مطرقة السحرة» كيف أن الساحرات كن معروفات بالقيام «بجمع أعضاء الذكور في أعداد كبيرة، يبلغ عددها مع بعضهنَّ عشرين أو ثلاثين عضواً، ووضعهم بعد ذك في عشٍّ طير»[19]، وروى الكتاب حكاية رجل فقد قضيبه، فذهب إلى ساحرة حتى يسترده:

«فأخبرت الرجل المصاب أن عليه أن يتسلق شجرة محددة، وأنه يمكنه أن يأخذ القضيب الذي يعجبه من العش الذي كان فيه وقتها عددٌ من القضبان، وعندما حاول

أخذ قضيب كبير قالت الساحرة: عليك أن لا تأخذ هذا القضيب، مضيفة: بسبب أنه عائد إلى أسقف أبرشية»[20].

وبكى رجل في 1621م واشتكى «من المرأة غير الطبيعية، والشبقة التي لا تشبع.. فأي منطقة وأية قرية لا تبكي وتشتكي»[21].

وفي الوقت الذي أصبح فيه ما بات معروفاً باسم السحر قد اخترع من قبل المسيحيين، مثلت بعض عناصر ممارسة السحر تقاليد وثنية أقدم، وربطت ممارسة السحر، لا بل عدت رديفاً للاهوتيات، مما عنى ليس فقط الإخبار المسبق للمستقبل، لكن أيضاً اكتشاف المعرفة بوساطة عون القوة المتفوقة وغير العادية[22]، وهي تقترح بهذا بأن هناك مثل هذه القوى وهي متوفرة، وهو شيء أصرت الأرثوذكسية المسيحية على أنه يمكن أن يكون فقط هو قوة الشيطان، لأن الرب لم تعد له علاقة بالعالم المادي.

وجاءت كلمة «Witch» (الساحر - الساحرة) من الكلمة الإنكليزية القديمة Wicce وwicca بمعنى مشاركة الذكر والأنثى في التقاليد المسيحية القديمة، التي تضع الذكورة، والأنوثة، والأوجه الأرضية للرب موضع تبجيل كبير، وهذا بالحري أكثر من الرب الذي هو واقف فوق العالم، انتقل وزال من الحياة العادية، وفهمت اللاهوتية في التقاليد «السحرية Wiccan» على أنها متشربة وموجودة في السماء والأرض، وتعيد هذه التقاليد إلى الذاكرة حقبة عملت فيها المجتمعات الإنسانية ونشطت من دون طبقات لاهوتية، سواء أبوية أو أمومية، ومن دون تمييز بالجنس، أو العرق أو وجود نظام طبقي دقيق، فلقد كانت تقاليد أكدت أن المهم بالنسبة للإنسانية هو أن تعيش من دون تحكم أو خوف، وهذا أمر أصرت المسيحية الأرثوذكسية على أنه غير ممكن[*].

(*) إن فكرة إمكانية عيش البشرية من دون تحكم وعنف، هي بعيدة تماماً عن الخيال العقائدي، حيث إنها باتت مؤكدة بوساطة صورة جديدة للتاريخ الإنساني، فقد أوضح كتاب جيمس ميلآرت Mellaert وماريجا غيمبوتاس Mariy Gimbutas، ورينه إيزلر Raine Eisler بأن الإنسانية قد عاشت ما يقارب خمسة وعشرين ألف عام بسلام، وهذه مدة أطول بكثير من مدية الـ 3500 - 5000 عام التي عاشتها مع الحروب والتحكّم.

وحاولت الكنيسة المبكرة اجتثاث آثار هذه التقاليد القديمة، وغير ذات المراتب الكهنوتية المتسلسلة، بوساطة إنكار وجود سحرة أو سحر خارج الكنيسة، وأمر القانون الأسقفي، وهو تشريع كنسي ظهر للمرة الأولى في عام 906م، بالإيمان بأن السحر كان من مراتب التسلسل اللاهوتي، فبعدما وصف طقوساً وثنية تنشغل النساء فيها بعرض قوى غير اعتيادية أعلن:

«لأن حشوداً لا تحصى خدعت بهذا الرأي الزائف، والإيمان بأن هذا صواب، وبمثل هذا الاعتقاد يضل الإنسان ويبتعد عن الإيمان الصحيح، ويتورط في خطيئة الوثنيين، عندما يعتقدون بوجود أية ربوبية أو قدرة، إلاّ في الرب الواحد»[24].

ومع ذلك ظلَّ الاعتقاد بالسحر منتشراً باتساع كبير في القرن الرابع عشر، إلى حد أن مجمع تشارترز Chartres أمر بالتفوه بالتكفير ضد السحرة في كل يوم أحد، وفي كل كنيسة[25].

واحتاجت الكنيسة إلى وقت طويل لإقناع المجتمع بأن النساء يملن إلى السحر الشيطاني وإلى عبادة الشيطان، وغيرت سياستها في إنكار وجود السحرة، وبدأت الكنيسة في القرن الثالث عشر في رسم صورة السحرة على أنهم عبيد للشيطان[26]، ولم يعد الساحر أو الساحرة مربوطين بالتقاليد الوثنية الأقدم تاريخاً، كما لم يعد يعتقد بأن الساحرة هي مفيدة في معالجة الأمراض أو نافعة، أو معلمة، أو امرأة حكيمة أو واحدة لديها إمكانية الوصول إلى السلطة اللاهوتية، فقد باتت وكيلة للشيطان الشرير، وشرعت الكنيسة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في تفويض عمل رسوم وصور مرعبة للشيطان[27]، وظهرت الصور الأولى للساحر وهو راكب مكنسة في عام 1280م(28)، ورسمت فنون القرن الثالث عشر وصورت الحزم الشيطانية وقد ظهر فيها الشياطين وهم يريدون الاستيلاء على الأطفال، وفيها الآباء أنفسهم وهم يرغبون بتسليم أولادهم إلى الشيطان[29]، ورسمت الكنيسة الآن السحرة وفق الصور نفسها، التي استخدمتها مراراً لتصوير الهرطقة، «. . . عبارة عن عصبة صغيرة من المتآمرين متورطين ومشغولين في ممارسات ضد الإنسانية، بما في ذلك قتل الأطفال، والحشرات، وأكل لحوم البشر، والانغماس في الشهوات البهيمية، وطقوس عربدة جنسية. .»[30].

وطورت الكنيسة فكرة عبادة الشيطان بمثابة رمز صارخ مضاد للطقوس المسيحية، والممارسات، حيث يفرض الرب الشريعة اللاهوتية، ذلك أن الشيطان يطلب الارتباط بحلف، ففي الوقت الذي يظهر المسيحيون فيه التبجيل للرب بالجثو على الركب، يقدم السحرة فروض الطاعة إلى الشيطان بالوقوف على رؤوسهم، وأصبحت قداسات القرابين في الكنيسة الكاثوليكية عمليات تغوط في كنيسة الشيطان، وصار قداس العشاء الرباني يحاكي استهزاءً بقداس أسود[31]، وصارت الصلوات المسيحية من الممكن استخدامها لعمل الشر بقراءتها بشكل معكوس[32]، وجرى تقليد خبز القربان المقدس بقداس شيطاني بوساطة نبات اللفت، وعملية التعميد أو سمة الأسرار، جرى تقليدها ومحاكاتها بطبع علامة الشيطان على جسد الساحر ببرثن يد الشيطان اليسرى[33]، وحيث إنَّ القديسين امتلكوا فضيلة البكاء، فقد قيل بأن السحرة غير قادرين على سفح الدموع[34]، وكانت عبادة الشيطان محاكاة بسيطة وتقليد للعبادة المسيحية، وفي الحقيقة كانت فكرة الشيطان هي بالذات مكرسة حصراً على التوحيد، وليس لها أهمية داخل الوثنية، أو التقاليد السحرية Wiccan.

وأقحمت الكنيسة إطار مراتبها اللاهوتية المتسلسلة في أعمال السحر الجديدة هذه، حيث صارت كنيسة الشيطَان منظمة بشكل يتمكن فيه المتميزون من تسلق المراتب حتى الوصول إلى مرتبة أسقف مثلما عليه الحال تماماً في الكنيسة الكاثوليكية[35]، وأوضح هذا جوليو كارو باروجا Julio Caro Baroja بقوله:

«يتسبب الشيطان بظهور الكنائس والمذابح مع الموسيقى... ويتزين الشياطين ويلبسون مثل القديسين، ويصل السادة إلى مراتب الأساقفة، ونواب الشمامسة، والشمامسة، والكهنة الذين يقيمون القداسات، ويجري استخدام الشموع والبخور من أجل القداسات، ويجري رش الماء من قبل حاملي المباخر، وهناك تقدمات، وقداسات ومباركات على ما يعادل الخبز والنبيذ.. وبناء عليه ما من شيء ينبغي أن يكون مفقوداً هناك حتى الاستشهاد الزائف في التنظيم»[36].

ومجدداً إن هذه المراتب الكهنوتية المتسلسلة التي أقحمت كلياً من قبل الكنيسة، لا تحمل أدنى شبه بالوثنية القديمة، وبملاحظة مدركة لكل من أوجه الرب الذكرية والأنثوية، وبفهم للرب وتشريبه خلال العالم المادي لم تكن التقاليد السحرية القديمة بحاجة إلى مراتب كهنوتية متسلسلة دقيقة.

لوحة خشبية محفورة من القرن الخامس عشر، عنوانها «سبت السحرة» وكانت هذه الممارسات السحرية ذات سمات معاكسة للطقوس المسيحية، والطقوس التي أوجدها رجال الكنيسة كان لها علاقة بسيطة أو بالحري لم يكن لها علاقة بتقاليد السحر لما قبل المسيحية.

وأضفى البابا جون الرابع والعشرين سمة رسمية على اضطهاد السحر وقمعه في عام 1320م، عندما منح وأعطى محاكم التفتيش سلطة قمع السحر[37]، ومن ذلك الوقت فصاعداً ازدادت المراسيم البابوية والإعلانات قسوة وحدة كثيراً في إدانتها للسحر، ولجميع الذين «يعقدون أحلافاً مع الجحيم»[38]، وفي عام 1484م أصدر البابا انوسنت الثامن مرسوم Summis desiderante منح فيه التفويض والسلطة إلى اثنين من قضاة محاكم التفتيش هما كريمر Kramer وسبرنجر Sprenger كي يتوليا وضع نظام لقمع السَّحرة والتنكيل بهم[39]، وبعد عامين من إصدارهما كتاب «مطرقة السحرة» ونشره، أعيد طبع الكتاب أربع عشرة مرة في الأعوام ما بين 1487 و1520م، وما لا يقل عن ست عشرة طبعة فيما بين الأعوام 1574 و1669[40]، ودعا مرسوم بابوي صدر في عام 1488م أمم أوربا إلى إنقاذ كنيسة المسيح التي كانت «مهددة بفنون الشيطان»[41]، ونجحت البابوية ومحاكم التفتيش في تحويل السحر من ظاهرة كانت الكنيسة قد نفت وجودها من قبل بكل شدة، إلى ظاهرة عدّت حقيقية تماماً، مخيفة كثيراً، ومضادة للمسيحية، وتستحق القمع والتنكيل تمام الاستحقاق.

وبات الحال الآن أنك هرطقي إن لم تؤمن بوجود السحرة، وبين كاتبا «مطرقة السحرة»: «أنَّ الإيمان بوجود مثل هذه الأشياء مثل السحر هو جزء أساسي في العقيدة الكاثوليكية، ذلك أن علينا المحافظة بعناد والتمسك بالرأي المضاد للذة المذاق التي تمتلكها الهرطقة»[42]، واقتبست نصوص من التوراة مثل قوله: «أنت لن تعاني من السحر مادمت حياً» لتسوغ التنكيل بالسحرة[43]، وآمن كل من كالفن ونوكس أنك إذا أنكرت السحر معناه إنكار سلطة التوراة[44]، وأعلن في القرن الثامن عشر جون ويزلي Joho Wesley مؤسس الكنيسة المنهجية Methodism إلى الذين يشككون بوجود السحر: «إن التخلي عن الإيمان بوجود السحر، هو جهد للتخلي عن الإيمان بالتوراة»[45]، وكتب واحد من أشهر الإنكليز يقول: «إن إمكانية الإنكار، لا بل الإنكار الفعلي بوجود السحر والشعوذة، هو إنكار على الفور ومعلن بوجود الكلمة الموحاة من الرب في مختلف نصوص كل من العهدين القديم والجديد، ومضاد لهما»[46].

ومكنت أعمال التنكيل بالسحر الكنيسة من إطالة عمر المنافع من محاكم التفتيش، فقد تركت محاكم التفتيش مناطق مدمرة اقتصادياً إلى أبعد الحدود، حتى

إنَّ قاضي محكمة التفتيش آيميرك Eymeric اشتكى قائلاً: «لـم يبـقَ في أيامنـا هراطقـة أغنياء.. وإنه لمن المؤسف حقاً أن مؤسسة مفيدة مثل مؤسستنا تبقى هكذا غير متأكدة من مستقبلها»[47]، وبإضافة السحر إلى الجرائم التي ينبغي التنكيل بها، تمكنت محاكم التفتيش من استعراض جماعة كبيرة جداً من الناس، منهم كلهم من الممكن جمع المال، وقد استغلت كل منفعة وفائدة من هذه الفرصة المناسبة، وبينت الكاتبة بربارة وولكر Brabara Walker:

«أن المتهمين توجب عليهم الدفع عن كل حبل ربطوا به، وكذلك ثمن الحطب الذي أحرقوا به، وكان لكل إجراء من إجراءات التعذيب ثمنه وأجرته، وبعد إعدام ساحر ثري، دعا الرسميون أنفسهم إلى وليمة على حساب ممتلكات الضحية»[48].

وفي عام 1592م كتب الأب كورنليوس لُوس Cornelius loss يقول:

«أرغمت مخلوقات بائسة على الاعتراف بأشياء لم يفعلوها قط بوساطة القسوة المتناهية للتعذيب... وهكذا حدث أنه بوساطة الذبح الوحشي أخذت حيوات أبرياء، وتم بوساطة الكيمياء الجديدة صنع نقود من الفضة والذهب من الدماء البشرية»[49].

وفي كثير من مناطق أوربا بدأت محاكمات بتهم السحر عندما توقفت المحاكمات بالهرطقات الأخرى[50]، وجاءت إجراءات التنكيل بالسحرة رسمياً بعد الإجراءات الأشد قسوة لمحاكم التفتيش، وصار الحال أنه ما أن يتهم إنسان بالسحر، حتى بات من المستحيل فعلياً أن ينجو من الإدانة، فبعد فحص عابر، كان يجري فحص جسد المتهم بحثاً عن علامات السحر، ووصف المؤرخ وولترنيغ Walter Nigg الإجراءات بقوله:

«.. بعدما كانت المتهمة تجرد من ثيابها وتصبح عارية، كان الجلاد يحلق جميع شعر جسدها بحثاً عن العلامة في الأماكن السرية من الجسد، وهي العلامة التي طبعها الشيطان على أجساد عصبته، واتخذت الثآليل، والنمش، وعلامات الولادة أدلة وبراهين على وجود علاقات محبة فطرية مع الشيطان»[51].

وإذا لم تظهر امرأة ولا علامة على وجود السحر، كان من الممكن إثبات الإجرام بطرائق كثيرة، مثل غرز إبر في عيني المتهمة، وفي مثل هذه الحالة من الممكن إثبات الإدانة الجرمية، إذا ما تمكن قاضي محكمة التفتيش من إيجاد بقعة بلا شعور أثناء الإجراءات[52].

ووقتها كان يجري انتزاع الاعترافات بوساطة طرائق شنيعة، وهي طرائق شائنة كانت قد تطورت خلال المراحل المبكرة لأعمال محاكم التفتيش، وقد كتب الملك جيمس الأول في كتابه «دراسة المعتقدات المرتبطة بالشياطين والعفاريت» يقول: «هم يشمئزون من الاعتراف من دون تعذيب[53] ويمقتون ذلك»، وتحدث طبيب كان يعمل في سجون السحرة عن نساء دفعن بالتعذيب حتى صرن شبه مجنونات:

«.. بوساطة تعذيب متوال.. أبقين لمدة طويلة وسط قذارة وفساد وظلام زنزاناتهن.. وكن يجرجَنْ بصورة مستمرة إلى الخارج حتى يتعرضن إلى تعذيب وحشي فظيع إلى أن يصلن إلى حالة يصبحن فيها مسرورات باستبدال هذا الوجود الأكثر مرارة بالموت، ويصبحن على استعداد للاعتراف بأية جرائم تقترح عليهن، مؤثرين ذلك على الإلقاء بهن وإعادتهن إلى زنزاناتهن القذرات، وسط تعذيب مستمر الوقوع»[54].

وما لم تمت الساحرة أثناء التعذيب، كانت تحمل إلى عمود الحرق، وبما أن عمليات الحرق كانت تجري في الساحات العامة، كان قضاة محاكم التفتيش يمنعون الضحايا من الحديث مع الجماهير باستخدام سدادات خشبية للأفواه، أو بقطع ألسنتهم[55]، وبخلاف الهراطقة واليهود الذين كانوا يحرقون وهم أحياء فقط بعدما يكونون قد انتكسوا وارتدوا إلى هرطقتهم أو يهوديتهم، كانت الساحرة، أو الساحر يحرق أثناء إدانته الأولى[56].

ولم يكن التشويه الجنسي والتمثيل بالسحرة المتهمين أمراً غير كثير التداول، ومع الفهم الأرثوذكسي بأنه ليست هناك علاقة مطلقة، أو علاقة قليلة، للربوبية مع العالم المادي، جرى تصور الرغبة الجنسية وفهمها على أنها عمل غير رباني، وعندما كان الرجال يتولون التنكيل بساحرات متهمات، ويجدون أنفسهم وقد أثيروا جنسياً، يذهبون إلى القول بأن مثل هذه الرغبة لم تنبعث عنهم أنفسهم، بل انبعثت من المرأة وصدرت، فيهاجمون الأثداء والأماكن الجنسية بكلاكيب، وبكماشات حديدية محماة إلى حد الاحتراق، وكانت بعض الأحكام تتغاضى عن الإساءات الجنسية بالسماح إلى رجال عدّوا على أنهم «كاثوليك متعَصِّبون» بزيارة السجينات على انفراد في أماكن محددة ومحصورة، ولم يسمحوا قط بالزيارات الأنثوية، وكان شعب طولوز على

قناعة تامة بأن قاضي التحقيق فولكوي دي سنت جورج Foulques de saint George كان يستدعي النساء إلى المحاكمة لا لغرض سوى إساءة التعامل الجنسي معهن، حتى إنَّهنَّ أقدمْنَ على خطوة خطيرة وغير اعتيادية بجمع الأدلة ضده[57].

ولم يعرف رعب مطاردة السحرة أدنى حدود، ولم تعامل الكنيسة قط أبناء الآباء المنكل بهم بالرحمة، بل كانت معاملتها لأبناء السحرة وحشية بشكل خاص، وكان الأطفال عرضة للتنكيل والتعذيب بتهمة السحر، ومراراً جرى تعذيب فتيات كن بالتاسعة والنصف من أعمارهن والتنكيل بهن، وكذلك كان يجري تعذيب الأولاد والتنكيل بهم لدى بلوغهم العاشرة والنصف[58]، وكان يجري تعذيب الأطفال الأصغر سناً من أجل استخراج شهادات يمكن استخدامها ضد آبائهم[59]، ووصل الأمر إلى حد عدّوا فيه شهادة الأطفال ممن بلغوا الثانية، شهادات مقبولة في قضايا السحر، مع أن مثل هذه الشهادات لم تكن مقبولة في أنماط المحاكمات الأخرى[60].

واشتهر واحد من القضاة الفرنسيين بتساهله وعطفه، بسبب أنه كان يصدر أحكاماً على الأطفال المتهمين بالسحر، بالجلد عوضاً عن الإحراق، لكنَّهم كانوا يجلدون أثناء مراقبتهم إحراق آبائهم[61].

وكان السحرة يستدعون للاستجواب عند حدوث أية مشكلة من المشاكل، وعند أي اضطراب اجتماعي، ولدى أية قضية تتعلق بالسلطات، وبات الآن أي عمل عصيان يمكن أن يعزى إليهم، أو يتهم العصاة بالسحر، ويجري التنكيل بهم على أساس أنهم عصاة، وليس أمراً مدهشاً أن المناطق التي كانت تشهد تحركات سياسية واضطرابات، وصراعات دينية، كانت تعاني من أكثر أعمال المطاردة كثافة للسحرة، ومالت أعمال مطاردة السحرة لأن تكون أكثر قسوة وحدة في ألمانيا، وسويسرا، وفرنسا، وبولندا، وسكوتلندا، مما كانت عليه في البلدان الكاثوليكية المتجانسة مثل إيطاليا وإسبانيا[62]، وأعلن الذين تولو مطاردة السحرة أن «العصيان هو أم السحر»[64]، وفي إنكلترا قال المتطهر وليم بيركنز William Parkins في وصفه السحر بأنه: «الخيانة الأشد سوءاً وشهرة والتمرد الأعظم الذي يمكن أن يكون..»[65].

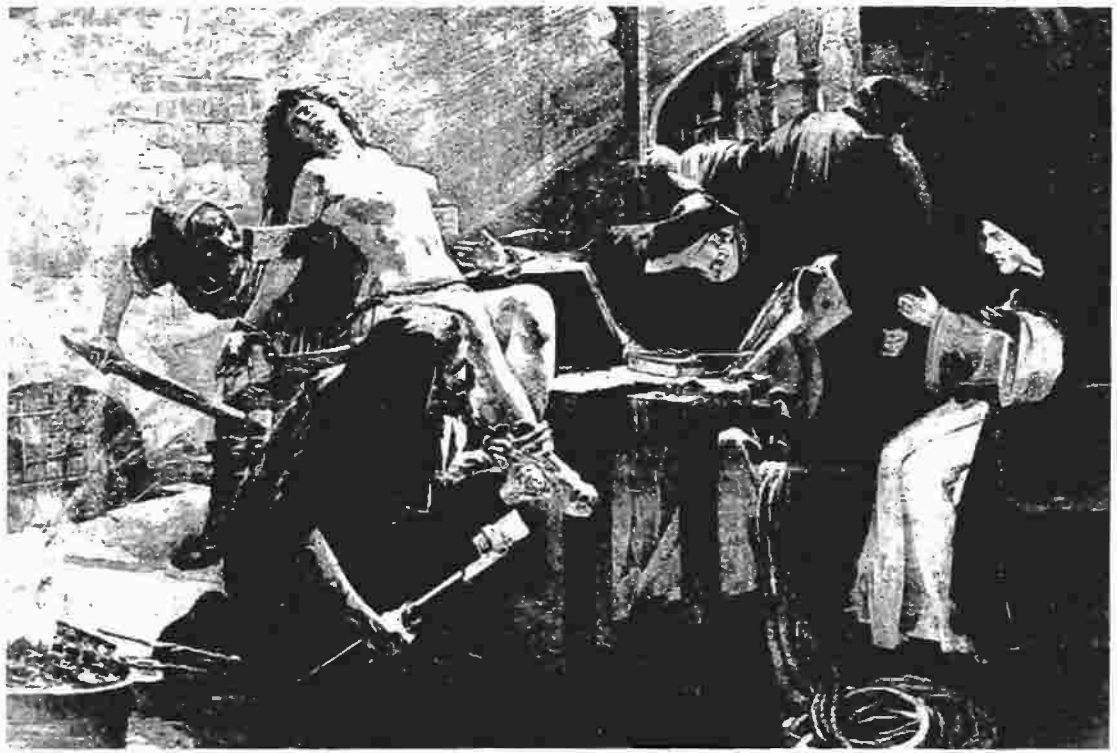

التعذيب الذي أنزل بامرأةٍ اتهمت بالسحر، وكان هذا النوع وحشياً بصورة خاصة

وأسهمت حركة الإصلاح الكنسي بدور حاسم في إقناع الناس بتوجيه اللوم إلى السحرة من أجل مشاكلهم، وبشر البروتستانت والإصلاحيون الكنسيون الكاثوليك وعلموا بأن أي نوع من السحر كان إثماً بما أنه يشير إلى اعتقاد بوجود مساعدة لاهوتية في العالم المادي، لأن القوة المتفوقة في العالم المادي هي موجودة بالشيطان، ومن دون سحر، للتصدي للشر، أو لسوء الحظ، يعني أن الناس قد تركوا من دون حماية سوى القيام بقتل وكلاء الشيطان، يعني السحرة، ونجد بشكل خاص في البلدان البروتستانتية، حيث باتت أعمال طقوس الحماية مثل: أن يرسم الإنسان على نفسه علامة الصليب، وأن يرش الماء المقدس، أو أن يدعو القديسين، والحراس من الملائكة، غير مسموح بها، نجد أن الناس شعروا أنهم بلا حماية[66]، وكما قال بروسبيرو Prospero الذي كان من شخصيات شكسبير في الإغواء:

والآن وقد أطيح بسحري كله
فأية قوة أنا أمتلكها بنفسي
هي ليست متلاشية. . . [67].

ونجد في الأغلب أن قداسات كل من الكاثوليك والبروتستانت، قد تولى الوعاظ فيهم إثارة أعمال مطاردة السحرة، وبدأت الأعمال الرهيبة لمطاردة السحرة في بلاد الباسك (البشكنس) في عام 1610م، بعدما جاء الراهب دومنغودي ساردو Domingo de Sardo للوعظ حول أعمال السحر، وعلق على ذلك واحد من المعاصرين اسمه سالازار Salazar بقوله: «لم يكنْ هناك لا سحرة ولا مسحورون حتى بدؤوا يتحدثون عن ذلك ويكتبون»[68]، وبدأت عمليات مطاردة السحرة في سالم Salem وماساتشوستس Massachusetts بشكل مماثل بوساطة قداسات مرعبة ومواعظ تولاها صموئيل باريس Samuel Paris في عام 1692[69].

واقتادت أجواء الرعب التي أوجدها رجال الكنيسة من أتباع الإصلاح الكنسي إلى موت أعداد لا تحصى من المتهمين بالسحر بصورة مستقلة عن محاكم التفتيش، أو الإجراءات القضائية، فعلى سبيل المثال نجد في إنكلترا أنه لم تكن هناك محاكم تفتيش ولا أعمال مطاردة سحرة، لأنها لم تقدم فوائد مالية، أو الذي قدمته كان قليلاً، نجد كثيراً من النساء قتلن بسبب السحر من قبل الدهماء، وعوضاً عن اتباع أية أجراءات قضائية، استخدم هؤلاء الدهَماء طرائق لتأكيد جريمة السحر، مثل «سباحة

الساحرة» حيث كانت تؤخذ المرأة المتهمة فتكتَّفُ ثم يلقى بها في الماء، لمشاهدة فيما إذا كانت ستطفو، ذلك أن الماء تعميد وسطي، فهو إما سيلفظها ويبرهن على أنها مجرمة باقتراف السحر، أو أن المرأة سوف تغطس فيبرهن على أنها بريئة، مع أنها كانت ستموت غرقاً[70].

وتبنى الناس عقيدة جديدة مفادها أن العالم هو المملكة الرهيبة المرعبة للشيطان، ووجهوا اللوم إلى السحرة من أجل كل نازلة سوء حظ، وبما أن الشيطان قد خلق جميع أمراض الدنيا، فإن وكلاءه - أي السحرة - يمكن أن يوجه إليهم اللوم من أجلهم، واعتقد بعضهم أن الساحر يمتلك من القوة مثلما يمتلك المسيح إن لم يكن أكثر منه، فبإمكان السحرة إحياء الموتى، وتحويل الماء إلى نبيذ أو حليب، والتحكم بالأنواء، ومعرفة الماضي والمستقبل[71]، وعدّ السحر والسحرة مسؤولين عن كل شيء من الإخفاق في مخاطرات مشاريع الأعمال إلى ضعف الحركة والعطاء، فعلى سبيل المثال جرى اتهام امرأة سكوتلندية بالسحر، وأحرقت حتى الموت بسبب أنها شوهدت وهي تضرب سنوراً، وذلك في الوقت ذاته الذي تحولت فيه دفعة من البيرة فصارت حامضة[72]، وشغل السحرة الآن دور أكباش الأضحية، وهو الدور الذي شغله اليهود من قبل، فقد نظر الآن إلى أي سوء حظ شخصي، أو سوء موسم، أو مجاعة، أو وباء، على أنه خطأهم الآثم.

وزاد الهيجان الاجتماعي - الذي تسببت حركة الإصلاح الكنسي بخلقه - من وتيرة مطاردة السحرة، فقد أزالت حركة الإصلاح الكنسي دور الجماعة وأحلت محل ذلك المطلب الأعظم من أجل الكمال الخلقي الشخصي، ومع لحاق الدمار بالتقاليد الجماعية بتبادل المساعدات، واندثار نظام العزب الريفية الذي كانَ يتولى بكرم تجهيز الأرامل وإمدادهن، وزواله، ترك كثير من الناس بحاجة إلى الصدقات[73]، وصار شعور الإنسان بالذنب بعد رفض تقديم العون إلى واحدة محتاجة، صار من السهل تحويله ضد تلك المحتاجة باتهامها بالسحر، ووصف كاتب معاصر لهذا اسمه توماس أدي Thomas Ady حالة مماثلة نتجت عن الإخفاق في أداء بعض الواجبات الاجتماعية التي كانت حتى الآن من العادات الجارية قائلاً:

كان من المعتقد أن الساحرات اللائي رسمن في هذه اللوحة امتلكن قوى خارقة، ونشرت حركة الإصلاح الكنسي الاعتقاد بأن القوى الخارقة أو السحر قد جاء من عند الشيطان، وأن الرب لم يعد يقدم أي سحر فيه وقاية، والوسيلة الوحيدة التي بقيت للذين كانوا في حالات الرعب هي التخلص من وكلاء الشيطان أي: السحرة.

كانت النساء العجائز الفقيرات في الغالب أول من وجهت إليهن تهمة ممارسة السحر

«وصرخ على الفور ساكن أحد البيوت وأعلن أن واحداً من الفقراء الأبرياء من الجيران أنه - أو أنها - سحرته، لأنه قال بأن رجلاً عجوزاً - أو امرأة - جاءت مؤخراً إلى بابي، ورغبت بالحصول على بعض المساعدة، وأنا رفضتَ تقديم ذلك، وليسامحني الرب، إن قلبي قد ثارَ ضدها . . وعلى الفور حدث أن ولدي، وزوجتي، وأنا شخصياً، وحصاني، وبقرتي، وشاتي، وبذاري، وخنزيري، وكلبي، وسنوري، أو آخرين، لحقهم المس، هكذا، هكذا، بطريقة غريبة جداً، وأتجرأ على أن أقسم أنها كانت ساحرة، وإذا لم تكن كذلك، كيف يمكن لهذه الأحداث أن تقع»[74].

وبشكل عام كان أكثر الضحايا عرضة للاتهام بالسحر، النساء اللائي شابهن تمثال العجوز الشمطاء، وبحكم أن المرأة الحكيمة العجوز هي تجسيد للقوة الأنثوية الناضجة، كانت تشكل تهديداً لبناء، كان يعترف فقط بالقوة والتحكم على آفاق للسلطة، ولم تتساهل الكنيسة قط مع تمثال العجوز الشمطاء، حتى في القرون الأولى عندما شابهت التماثيل المنتشرة للفتاة وللأم في تمثال مريم، ومع أن أية امرأة لفتت الانتباه، كانت عرضة للاتهام بالسحر، إما بسبب جمالها، أو بسبب مظهر غريب ملاحظ فيها، أو نقْص وتشويه فيها، مع ذلك كانت أكثر الضحايا بشكل عام هن النساء العجائز، وكانت النساء العجائز الأكثر عرضة للاتهام فوراً، حتى حيث مطاردة السحرة قد استنفدَتْ أغراضها بوساطة إجراءات محاكم التفتيش، التي ربحت باستهداف الأفراد الأكثر ثراءً.

وكانت النسوة العجائز، الحكيمات اللائي يتولين المعالجة الطبية، بشكل خاص أهدافاً لأعمال مطاردة السحرة، وقد كتب رينالد سكوت Reginald scot في عام 1584م يقول: «في هذه الأيام، لا فرق في أن تقول باللغة الإنكليزية: هي ساحرة، أو هي امرأة حكيمة»[75]، واعتمد عامة الناس في أوربا ما قبل الإصلاح الكنسي على النساء الحكيمات وعلى الرجال العقلاء من أجل معالجة الأمراض أكثر من اعتمادهم على رجال الكنيسة، أو الرهبان، أو الأطباء، وقد كتب روبرت بيرتون Robert Burton في عام 1621م يقول:

«السحر والشعوذة منتشران تماماً، والرجال الدهاة البارعون، والعرافون، والسحرة، البيض - كما يسمونهم - موجودون في كل قرية، وهم إذا ما قُصدوا، فإنهم سوف يساعدون كل الضعفاء والمرضى بأجسادهم وفي عقولهم»[76].

وقدّم هؤلاء المعالجون بجمعهم بين معارفهم، وبين بعض الأعشاب الطبية، مع الدعاء وطلب المساعدة الربانية، وأمدوا الناس بمعالجات يمكن تحمل نفقاتها، كما كانت في الغالب أدوية أكثر تأثيراً، وأعظم مما كان متوافراً في أي مكان آخر، وعارض رجال كنيسة الإصلاح الكنسي الطبيعة السحرية لهذا النوع من المداواة، على الرغم من تفضيل الناس لها وإيثارها على المعالجات التي تقدمها الكنيسة، أو الأطباء المجازين من الكنيسة، وعارضوا أيضاً السلطة والقوة التي أعطيَتْ للنساء.

وإلى أن انتشر رعب مطاردة السحرة، لم يفهم كثير من الناس لماذا يجب أن يعد المداوون الناجحون أشراراً، وقد كتب جون ستيرن John Stearne يقول: «بالحري على الناس رفع شأنهم، وأن يقولوا: لماذا ينبغي استجواب أي رجل لفعله الخير؟.»[77]، وقد تذكر راهب من بردجتاين Bridgettine ومن أوائل القرن السادس «النساء البسطاء» وهم يقولون له كما قال: «لقد سمعتهم كثيراً جداً يقولون لي شخصياً.. نحن نعني الخير، ونؤمن بالخير، ونعتقد أنه عمل صالح ومفيد وفيه خير أن تداوي شخصاً مريضاً، أو حيواناً مريضاً..»[78]، وفي عام 1555م أكدت جوان تيري Joan Tyrry أن «عملها في مداواة إنسان وحيوان بالقوة التي علمها الرب إياها بوساطة... الجنيات هو رباني وصالح..»[79].

وفي الحقيقة إن الابتهالات نفسها التي استخدمت من قبل النساء الحكيمات تتمتع تماماً بالسمة المسيحية من ذلك على سبيل المثال أنه في عام 1610م جرى إنشاد قصيدة أثناء التقاط عشبة «رعي الحمام Vervian»، وهي العشبة المعروفة أيضاً باسم «حشيشة القديس يوحنا St. Johns Wort»، نقرأ منها الأبيات التالية:

«مباركة أنت يا حشيشة رعي الحمام، وأنت تنمين
على الأرض/ لأنه في جبل الجمجمة هناك
تم العثور عليك للمرة الأولى/ فأنت التي شفيت مخلصنا
يسوع المسيح، وعالجت جرحه النازف
/ باسم الآب، والابن، والـ
ـروح القدس/ ألتقطك من الأرض»[80].

ولكن بنظر المسيحيين الأرثوذكس، أعطت هذه المعالجات السلطة إلى الناس لتقرير مجرى حيواتهم، عوضاً عن الخضوع بلا حول ولا طول لإرادة الرب، فتبعاً لرجال الكنيسة، ينبغي أن تأتي الصحة من الرب، وليس من خلال جهود بني البشر، وقد قال الأسقف هول Holl: «نحن لا نمتلك القدرة لأن نأمر، ينبغي أن نصلي..»[81].

استخدم العشب المرسوم على هذه اللوحة الخشبية للوقاية من عضة الأفعى ولسعة العقرب، وكانت هذه العشبة بين أعشاب كثيرة استخدمت للمعالجة، وإنه لأمر مأساوي أن كل واحد - أو واحدة - امتلك فهماً ومعرفة بالأعشاب الطبية صار هدفاً للمطاردة بتهمة السحر، مما أدى إلى تدمير التقاليد الغربية حول استخدام الأعشاب.

واعتادت المحاكم الكنسية أن تجعل زبائن السحرة يعترفون بشكل معلن بأنهم «آسفين من قلوبهم لأنَّهم طلبوا مساعدة إنسان، ورفضو مساعدة الرب..»[82]،

وأوضح واعظ من عصر الملكة اليزابث الأولى أن أية معالجة من المعالجات «لم تتم بالمناشدة أو الربوبية، حسبما يؤمن الكهنة البابويين ويمارسون، بل بالتوجه إلى الرب بتواضع من خلال الصوم والصلاة..»[83]، وتبعاً لكالفن ما من دواء يمكنه أن يغير مجرى الأحداث، التي جرى تقريرها من قبل الرب القدير[84].

وحاول الواعظون والذكور المجازون من قبل الكنيسة أن يملؤوا مكان نشاط المعالجين، ومع ذلك غالباً ما عدّت معالجاتهم غير فعالة بالمقارنة مع معالجات النساء الحكيمات، واعترف المحافظ على سجن كانتربري أنه أطلق سراح امرأة حكيمة في عام 1570م بسبب «أن السحر أفاد أكثرَ بوساطة طبابتها، مما قام به السيد بودل Pudall والسيد وود Wood، اللذان هما واعظان بكلمة الرب..»[85]، وتحدث صك صدر في عام 1593م بعنوان: «حوار يتعلق بالسحر» عن امرأة حكيمة محلية «بأنها فعلت من الخير في عام واحد أكثر مما فعله جميع رجال الكتابات المقدسة هؤلاء وسيفعلونه طوال العمر الذي سيعيشونه..»[86].

ولقد تبين أنه حتى الذكور من الأطباء الذين أجازتهم الكنيسة، والذين اعتمدوا على التخلص من الأعضاء المصابة ببترها، وعلى الفصد، وعلى التبخير، وعلى العلق، وعلى المبضع، وعلى المواد الكيماوية السامة مثل الزئبق، تبين أنهم أدنى خبرة ولا يمكن مقارنتهم بمعارف النساء الحكيمات بالأعشاب[87]، ومثلما تساءل الطبيب المشهور كثيراً باراسيلسوس Paracelsus بشكل إيجابي صحيح بقوله: «ألم تتمكن ممرضة قديمة في الغالب من هزيمة طبيب؟»[88]، حتى فرانسيس بيكون Francis Bacon الذي أظهر قليلاً جداً من الاحترام للنساء، قد اعتقد أن «النساء المجربات والعجائز كن أكثر سعادةً في كثير من الأوقات وأكثر نجاحاً في معالجاتهن من الأطباء المتعلمين»[89].

وغالباً ما عزا الاطباء عجزهم وإخفاقهم إلى السحر كما كتب توماس أداي Thomas Ady يقول:

«السبب هو الجهل، وطيلسان خبيث وتعويذة، مجرد رداء لتغطية جهل الطبيب، وعندما لا يمكنه اكتشاف طبيعة المرض، يقول: إن المصاب مسحور»[90].

وعندما كان من غير الممكن فهم مرض من الأمراض، كانت حتى الهيئة الطبية الأعلى في إنكلترا، أي الكلية الملكية للأطباء في لندن، معروفة بقبول تعليل وجود السحر[91].

ولذلك ليس مدهشاً إقدام رجال الكنيسة على تصوير النساء المداويات على أنهن الأكثر شروراً بين جميع السحرة، وقد أعلن وليم بيركنز William Perkins: «إن التنين الأكثر إرعاباً والأبشع والأكثر كراهية.. هي الساحرة الجيدة»[92].

وأدخلت الكنيسة في تعريفاتها المحددة لممارسة السحر، أي واحد لديه معرفة بالحشائش والأعشاب، لأن «هؤلاء الذين يستخدمون الأعشاب من أجل الشفاء، يفعلون ذلك من خلال تحالف مع الشيطان، إما بشكل بيّن أو شكل ضمني»[93]، هذا وكانت الطبابة والأدوية مقرونة منذ زمن طويل مع الأعشاب والسحر، والكلمتان الإغريقية واللاتينية للدواء هما «فارماكيا Pharmakeia وفينيفيكيوم Veneficium، وهما تعنيان «السحر» و«الدواء»[94] معاً، وهكذا صار مجرد امتلاك زيوت أعشاب أو دهون، أرضيَّةً كافيَةً من أجل الاتهام بالسحر[95].

واقتادت مقدرة أي شخص على المداواة بسهولة إلى الإدانة بالسحر، ففي عام 1590م باتت امرأة من نورث بيرويك North Berwick موضع ريبة واتهام، لأنها كانت قادرة على مداواة «جميع الذين كانوا يعانون من الاضطراب، أو الأسى أو الحزن، مع كل نوع من الأمراض أو العجز»[96]، وكان رئيس الأساقفة المريض لأسقفيَّة سيت أندروز Andrews قد استدعى لمعالجته ألسون بيرسون أوف بايرهيل Alison Peirsoun of Byrehill، وبعدما نجحت بمعالجَته، لم يرفض فقط أن يدفع لها أجورها، بل أمر باعتقالها بتهمة السحر، وأحرقها حتى الموت[97]، وكان ببساطة مجرد معالجة بعض الأطباء المرضى وغير الأصحاء بغسلهم سبباً كافياً لإدانة امرأة أسكوتلنديَّة بممارسة السحر[98].

واستهدفت أعمال مطاردة السحرة أيضاً القابلات، وقد اعتقد المسيحيون الأرثوذكس أن عملية الإنجاب تدنس كلا من الأم والمولود، وفي سبيل إعادة القبول في الكنيسة، يتوجب على الأم أن تتطهر من خلال العادات «الكنسية» التي تتألف من مدة حجر مقدارها أربعون يوماً، إذا كان مولودها ولداً ذكراً، ولمدة ثمانين يوماً إذا

كان مولودها أنثى، حيث تعد هي ومولودها خلال هذه المدة كفاراً، واعتقد بعضهم أن المرأة التي تموت خلال هذه المدة، ينبغي عدم منحها دفناً مسيحياً، وإلى أن جاء وقت الإصلاح الكنسي ارتؤي أن القابلة ضرورية لتتولى القيام بالعمل الذي عدّ عملاً قذراً، أي عملية الإنجاب والمساعدة على الولادة، وهو اختصاص مهين، كان من الأفضل تركه بين أيدي النساء، ولكن مع مجيء الإصلاح الكنسي، ازداد إدراك قوة القابلات، فقد باتت القابلات الآن موضع ريبة في امتلاكهن البراعة والمقدرة على إجهاض الجنين، وتعليم النساء وتدريبهن حول تقنيات التحكم بالولادة(*)، وتخفيف آلام الوضع عند المرأة[99].

ونظر إلى امتلاك القابلة شيئاً من المعلومات عن أعشاب تساعد على تسكين آلام الوضع، على أنه تحدٍّ مباشر ومواجهة للقضاء الرباني الذي حتم وجود آلام وضع، وفي نظر رجال الكنيسة، يطال قرار العقوبة الذي أصدره الرب ضد حواء جميع النساء، حسبما جاء في سفر التكوين:

«وقال [الربُّ] للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حملك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك»[100].

ولسوف يكون الإقدام على تسكين آلام الوضع عند المرأة، حسبما ارتأى رجل دين إسكوتلندي، «إبطال اللعنة الأولى على المرأة»[101]، وتسبب إدخال استخدام المخدر لمساعدة المرأة أثناء آلام الوضع في جلب المعارضة نفسها وإثارتها، وتبعاً للاهوتي كبير في إنكلترا الجديدة:

«إن المخدر فخ نصبه الشيطان، يقدم بالظاهر نفسه لمباركة النساء، ولكنه في النهاية سوف يجعل المجتمع قاسياً، ويحرم الرب من الصرخات العميقة والمخلصة، التي ترتفع في وقت الاضطراب، والحاجة إلى المساعدة»[102].

وكتب مارتن لوثر: «لو أن النساء أصبحن متعبات، أو حتى متن، فهذا لا يشكل مشكلة[103]، وبناء عليه ليس مدهشاً أبداً أن غدت النساء اللائي لا يمتلكن

(*) تعود الشواهد على استخدام الأعشاب لمنع الحمل إلى ما لا يقل عن 1900 ق. م (Noon.an92)، وأوصلت المعلومات حول منع الحمل خلال العصور الوسطى ونشرت من قبل المعالجين والقابلات.

المعرفة الطبية فقط، ولكن اللائي يستخدمن تلك المعرفة لمواساة النساء الأخريات والعناية بهن، أصبحن المتهمات الأول في ممارسة السحر».

هذا ومن غير الممكن معرفة الذين فقدوا حياتهم، خلال قرون مطاردة السحرة، ولن يمكن معرفته، وتفاخر بعض أعضاء رجال اللاهوت كثيراً حين ذكروا عدد الذين أدانوهم بالسحر، مثلما فعل أسقف وورتزبيرغ Wartzburg الذي ادعى إعدام 1900 حياة، خلال خمسة أعوام، أو كما ادعى الأسقف اللوثري بندكت كاربزوف Benedict Carpzov بأنه حكم بالإعدام على عشرين ألفاً من عبدة الشيطان[104]، ثم إن الغالبية العظمى من السجلات قد فقدت، ومن المشكوك فيه أن تكون تلك الوثائق قد سجلت أعداد الذين قتلوا خارج المحاكم.

وأشارت روايات عاصرت الأحداث إلى حجم المحرقة، فقد كتبت بربارة وولكر Barbara Walker «أن مؤرخ تريف Treves ذكر أنه في عام 1586م تمت إبادة جميع الإناث من السكان في قريتين إبادة كاملة من قبل قضاة محاكم التفتيش، باستثناء امرأتين فقط تركتا على قيد الحياة»[105]، وكتب رجل في حوالي عام 1600م يقول:

«ألمانيا كلها مشغولة تقريباً بتشييد محارق للسحرة.. وأرغمت سويسرا على محق كثير من قراها بسببهم، ويمكن للمسافرين في اللورين أن يشاهدوا آلافاً وآلافاً من الأعمدة التي إليها ربط السحرة»[106].

وفي الوقت الذي استعر فيه التنكيل الرسمي بالسحرة من 1450 حتى 1750م، فإن القتل المتقطع للنساء، على أساس الاتهام بالسحر، قد استمر حتى الوقت الحالي، ففي عام 1928م تمت تبرئة أسرة فلاحية هنغارية من جريمة ضرب امرأة عجوز حتى الموت، حيث ادعوا أنها كانت ساحرة، وبنت المحكمة قرارها على أساس أن الأسرة تصرفت صدوراً عن إرغام لا يمكن مقاومته[107]، وفي عام 1976م اتهمت العانس المسكينة اليزابث هاهن Elizabeth Hahn بالسحر، وباحتفاظها بقرناء من الجن، أو بوكلاء للشيطان، على شكل كلاب، وقام جيرانها في قريتها الألمانية الصغيرة بنبذها، ورموا بالصخور عليها، وهدَّدُوها بالضرب حتى الموت قبل حرق بيتها، وقد تعرَّضَتْ هي للاحتراق بشكل سيِّيء، كما أنهم قتلوا حيواناتها[108]، وبعد عام جرى قتل رجل عجوز في فرنسا بسبب الزعم أنه كان ساحراً[109]، وفي عام

1981م قتل جمهور من الناس في المكسيك امرأة برجمها بالحجارة لمظهرها وكأنها ساحرة، حيث إنَّهم اعتقدوا بأنها حرضت على الهجوم على البابا يوحنا بولص الثاني[110].

ولم تكن أعمال مطاردة السحرة صغيرة لا من حيث الإطار ولا التطبيق، حيث لم يمارسها عدد ضئيل من الأفراد الشاذين، بل كانت أعمال التنكيل بالسحرة هي السياسة الرسمية لكل من الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية[111].

فقد اخترعت الكنيسة جريمة ممارسة السحر، وأسست الإجراءات التي بوساطتها تمّ التنكيل بها، ثم أصرت على أن السحرة قد جرى التنكيل بهم، وينبغي التنكيل بهم، وبعدما رفض كثير من المجتمع السحر على أنه خداع ووهم، كان بعض ممن أصر على استمرار السحر ودوره بين رجال اللاهوت[112]، وتحت ذريعة الهرطقة أولاً، ثم السحر ثانياً صار من الممكن تعرض أي واحد منهم للتهمة والمساءلة، وخاصة ممن شكك بسلطة المسيحية أو بوجهة نظرها حول العالم.

وضمنت أعمال مطاردة السحرة تحول أوربا إلى الأرثوذكسية المسيحية، فمن خلال رعب مطاردة السحرة، تمكن المسيحيون من أتباع الإصلاح الكنسي، من إقناع عامة الناس بالاعتقاد بوجود رب ذكر يحكم من الأعلى، أي أنه منفصل عن الأرض، وأن السحر كان عملاً شيطانياً، لأن هناك شيطان قوي مقتدر، وأن النساء هن الأكثر مواءمة لأن يكونوا وكلاءَهُ، وكنتيجة عرضية من نتائج مطاردة السحرة، تحول ميدان الطبابة إلى أن يكون ميداناً محصوراً بأيدي الذكور، وتعرضت التقاليد الغربية المتعلقة بالأعشاب إلى الدمار الواسع، وبجعل العدد الهائل من الناس الذين تعرضوا إلى العذاب الوحشي والذين قتلوا، وكذلك التأثير الهائل على التصور العام للرب، يجعل هذا كله مطاردة السحرة واحداً من أكثر الفصول ظلاماً في التاريخ الإنساني.